

تقديم الناشر

ربما لا تكون هناك شخصية تعرضت للهجوم المنهجي المستمر في العالم الغربي مثل شخصية النبي محمد (ﷺ). فمنذ نهاية القرن الهجري الأول، بدأ قس أوروبا بتصويره تارة بأنه قس منحرف، وتارة بأنه هرطيق تلبَّسه الجن، أو أنه عبد للشهوات الجنسية، يعانى من صرع... أو كل ذلك، وما إلى ذلك.

وقالوا عن المسلمين: المحمدانيين، والذين يعبدون الوثن محمداً.

في القرن الحادى عشر، شنت أوروبا حروبها الصليبية، طوال ثلاثة قرون، لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدي الكفار أتراكًا وعربًا، وبعد أن أسالوا دماء المسلمين واليهود، ودماءهم، غادروا المنطقة مخلفين صدعًا كبيراً بين أوروبا الغربية المسيحية والشرق الأوسط المسلم. وسنكتفى في هذا المقام الضيق بنقل بضعة نصوص من كتاب «تاريخ الحملات الصليبية» - للمؤرخ ستيفن رانسيمان، من منشورات جامعة أكسفورد، وترجمة نور الدين خليل:

● وتدفق الصليبيون عبر البوابتين، ولم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن في قتل كل تركى يشاهدونه من الرجال والنساء... ص ٣٦٢، الجزء الأول.

● وكان يحق له [الإمبراطور البيزنطى] أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذكس فى فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج... ص ٤١٤، الجزء الأول.

● ... واقتحموا المنازل والمساجد [فى القدس] وأخذوا فى قتل كل من يقابلهم، الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله... وفى باكورة الصباح التالى، اقتحمت جماعة من الصليبيين المسجد، وقتلوا كل من فيه.

وهرب يهود القدس إلى كنيسهم الرئيسى، لكن الصليبيين اعتبروا أنهم قدموا المساعدة إلى المسلمين فلم يظهروا أية رحمة، وأشعلوا النيران فى المبنى، واحترق اليهود كلهم داخله. - ص ٤٣٤، ٤٣٥، الجزء الأول.

● [وفى يافا]: هرب من كان قادراً على الفرار من المسلمين واليهود، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان. - ص ٤٧٥، الجزء الأول.

● [بل أنه] فى معرة النعمان أكل جيش الصليبيين لحوم البشر، ولم ينكر ذلك إلا صليبي واحد! - ص ٣٩٨، الجزء الأول.

عاد الصليبيون وقد تعلموا الكثير من الشرق^(*)، ولكن مع ذلك أنكر التيار الرئيسى فى أوروبا ذلك، واستمر الإنكار حتى اليوم.

وتجسد «الكوميديا الإلهية» لدانتى المفارقات الجديرة بالذكر فى التباين الهائل فى التفاعل بين الشرق الأوسط وأوروبا. دانتى اليجيرى هو شاعر إيطاليا وأوروبا الملحمى، وأحد آباء اللغة الإيطالية الثلاثة، عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، والرابع الأول من الرابع عشر.

يقول عنه حسن عثمان، فى ترجمة كتابه «الكوميديا الإلهية» الذى نشرته دار المعارف عدة طبعات فى ثلاثة أجزاء:

أحد عظماء الرجال فى تاريخ البشرية، ورائد عصر النهضة.

ويقول الدكتور حسين محمود عن كتاب دانتى:

ربما لم يترجم كتاب إلى اللغات الأجنبية - باستثناء الكتاب المقدس - بعدد ترجمات الكوميديا الإلهية. فقد بلغت فى لغات بعينها عشرات المرات، وترجم إلى الإنجليزية ما يقرب من خمسين ترجمة.

(*) هناك كتب كثيرة تناولت ذلك، منها: «شمس العرب تسطع على الغرب»، «الله ليس كذلك»، «الجزور الشرقية فى الحضارة الغربية».

الكتاب عبارة عن أناشيد عن الجحيم، والمُطَهَّر، والفردوس، تزيد عن المائة بقليل، ذيلٌ كاتبنا المهور بدانتى - حسن عثمان - النشيد الثامن والعشرين من الجحيم بعبارة اعتذار رقيقة :

ولقد حذفت من هذه الأنشودة أبياتاً وجدتها غير جديرة بالترجمة .
ماذا تقول تلك الأبيات - غير الجديرة بالترجمة - التى تتكلم عن الوادى التاسع
الرهيب فى قاع جهنم؟ :

.....

مشقوقاً من الذقن إلى حيثما يُصدر الريح

من بين ساقيه تتدلى أحشاؤه

ويظهر القلب وتظهر أمعاؤه

أى براز يصنعه ما يبتلعه

وبينما أرى كل شىء فيه أندهل

ينظر لى وقد شق بيده صدره

قائلاً أنظر كيف اشق نفسى

انظر كيف تشوه محمد

وأمامه أرى علياً وقد راح يبكى

مفلوق الوجه من الذقن إلى الشعر

وكل من ترى ها هنا

هم زارعو العار والشقاق [ترجمة الدكتور حسين محمود]

.....

تبقى عن دانتى كلمة أخيرة ... أن دانتى استوحى فكرة «الكوميديا الإلهية» من
«مصادر عربية ... كما استوحى أوروبا نهضتها من الشرق، وكما استمدت هيمنتها
من مناجم الذهب والفضة وبقية خيرات أمريكا، ومن تسخير سكان أمريكا الأصليين
واسترقاق الأفارقة وتسخيرهم للعمل هناك، حتى الموت، ثم تنكرت لذلك .

بنت أوروبا شخصيتها على رفض الآخر، واستباحته، وإذا لزم استئصاله متى تمكنت من ذلك . . . والأمثلة كثيرة من معازل السكان الأصليين، في استراليا في أقصى الشرق، إلى الشرق الأوسط وما استرقته في إفريقيا وعزلته في جنوبها، وإلى السكان الأصليين لأمريكا في أقصى الغرب . . .

وعندما تمكنت أوروبا من التكنولوجيا - وخاصة الحربية - لم تتوان في الخروج في حملات عسكرية لاستنزاف العالم شرقه وغربه وجنوبه، بما اصطلح على تسميته الاستعمار.

واحتاج ذلك الاستنزاف البربرى إلى تبرير أيديولوجى أمام شعوبها، سواء كانت مسيحية، تتبع المسيح صاحب دعوة السلام والمحبة والزهدة في الماديات ومتعة الدنيا . . . ، أو علمانية، تتبع الأفكار التنويرية وحقوق الإنسان، وداروينية البقاء للأصلح، وما إلى ذلك (*) . كذلك احتاج ذلك الاستنزاف لدراسة ضحاياه . . . من ناحية الجغرافيا، ومن ناحية الثقافة والفكر، خاصة ما قد يشكل لدى الشعوب عائقاً ضد ذلك الاستنزاف . . . فاشتدت حركات الاستكشاف، والتبشير، والاستشراق . . . الذى قام بالترويج لحمل الرجل الأبيض، ورسالته لنشر الحضارة والقيم، والأخذ بيد العالم المتخلف . . . فصار مؤسسة غربية متزايدة الفتك والشراسة تضع الأيديولوجيا والأساس الأخلاقى والفكرى للعدوان على الغير . . . على أرضه . . . وعمله . . . وثقافته . . . وهويته . . . وإذا لزم استئصاله، مع النادر من الاستثناءات . تلك المؤسسة التى استغرقت سنوات من الدراسة لدى إدوارد سعيد، حتى استطاع أن يكتب عنها «الاستشراق - المفاهيم الغربية للشرق» :

● أمامنا ثلاثة عوامل، جعلت من تفهم العرب والإسلام حتى فى أبسط الصور الممكنة مسألة مشبعة بالدلالات السياسية عالية النبرة . الأول هو تاريخ التعصب الشائع فى الغرب ضد العرب والإسلام، وهذا الذى يتجلى مباشرة من تاريخ الاستشراق، والثانى هو الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية وتأثير ذلك الصراع فى اليهود الأمريكيين وفى

(*) أشرح للقراءة كتب «الكتاب المقدس والاستعمار» للقس مايك پريور، و«تاريخ نهاية العالم» لجونانان كيرش، و«الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا» لكليفورد لوغلى، وكذلك «الجنود الشرقية للحضارة الغربية» لجون هوبسون .

الثقافة المتحررة [الليبرالية] وفي السكان بصفة عامة، والثالث هو الانعدام شبه التام لأي موقف ثقافي يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام أو مناقشة أيهما مناقشة غير انفعالية.. ص ٧٨ .

● هذا هو محمد، الدجال الشهير، صاحب ومؤسس البدعة التي اتخذت اسم الدين، وهي التي ندعوها المحمدية. وقد نسب مفسرو القرآن وغيرهم من علماء الشريعة الإسلامية أو المحمدية إلى هذا النبي الزائف جميع الصفات الحميدة التي نسبها الأريوسيون والبوليون وغيرهم من المارقين إلى يسوع المسيح، مع تجريده من ألوهيته.. ص ١٣٢ . [من معجم ديريلو بالفرنسية بعنوان بيليوتيك أوريتال، ونشر عام ١٦٩٧م. وظل البيليوتيك المرجع المعتمد في أوروبا عن الإسلام حتى أوائل القرن التاسع عشر.. ص ١٢٩، ١٣٠].

● ويشير نابوليون إلى قولني في تأملاته، فقال: إن قولني كان يعتقد بوجود ثلاثة حواجز أمام الهيمنة الفرنسية على الشرق [تستلزم] ثلاث حروب: الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالي العثماني، والثالثة - وهي أصعبها - ضد المسلمين.. ص ١٥٤ .

● ... وأخيراً، لأن الاستشراق كان قد اكتمل تحوله الذاتي من خطاب علمي إلى مؤسسة إمبريالية.. ص ١٧٣ .

● ... ففي الرواية التي كتبها السير والتر سكوت بعنوان الطلسم (١٨٢٥م)، يكتشف المسيحي أن عدوه المسلم ليس بالسوء الذي تصوره، ومع ذلك يقول له:

كنت أعتقد حقاً... أن سلا لتكم العمياء تنحدر من صلب الشيطان الخبيث، ولولا مساعدته لكم ما استطعتم يوماً أن تسيطرأ على هذه الأرض المباركة، أرض فلسطين، وتصدوا عنها هذا العدد الهائل من جنود الله البواسل [الصليبيين].. لكن ما أراه غريباً ليس انحدارك من صلب رب الشر، بل تفاخرك بذلك.. ص ١٨١، ١٨٢ .

● وقد كان معنى هذا الواقع العملي أنه حين يقوم الشرقيون بالكفاح ضد

الاحتلال الاستعماري، فعليك أن تقول إن الشرقيين لم يفهموا يوماً ما معنى الحكم الذاتي بالصورة التي نفهمه بها «نحن». وإذا عارض بعض الشرقيين التمييز العنصري، فقل: «إنهم جميعاً شريكون في أعماقهم» ولا تنطبق عليهم مفاهيم المصالح الطبقية والظروف السياسية والعوامل الاقتصادية إطلاقاً. أو قل مع برنارد لويس: إن الفلسطينيين العرب إذا عارضوا الاستيطان والاحتلال الإسرائيلي لأراضيهم، فإن هذا لا يعدو كونه «عودة الإسلام»، أو كما يقول تعريف مستشرق معاصر شهير: إنه معارضة إسلامية للشعوب غير الإسلامية.. ص ١٩٠.

● وهكذا يولد الشرق من جديد، في الرؤية التي تمثل ذروة حديث لامارتين، في إطار حق أوروبا في السيطرة عليه، قائلاً:

والهيمنة من هذا اللون، وفقاً لهذا التعريف وطبقاً لتكريسها وتخصيصها باعتبارها حقاً أوروبياً، تكمن بصفة أساسية في الحق في احتلال منطقة ما، وكذلك السواحل، من أجل تأسيس مدن حرة فيها، أو مستعمرات أوروبية، أو موانئ تجارية تمر عليها السفن بانتظام... ص ٢٨٨.

● وهكذا، فمن الصحيح - إذن - أن كل أوروبي كان عنصرياً، وإمبريالياً، ومعتنقاً للمركزية العرقية بصورة شبه كاملة.. ص ٣٢٠، ٣٢١.

● كان المستشرقون يعملون، ويقدمون الوعود، ويوصون باتخاذ سياسات عامة بناء على تلك التعميمات... إذ كانوا يرون أن القضية الرئيسية تنحصر في الحفاظ على سيطرة الرجل الأبيض على الشرق والإسلام.. ص ٣٦٩.

● فالاستشراق يحكم السياسات الإسرائيلية تجاه العرب على نحو ما يثبتته إثباتاً قاطعاً تقرير كونيغ الذي نُشر أخيراً، ونفهم منه أن العرب إما اختيار (وهم اللذين يفعلون ما يؤمرون) أو أشرار (وهم من يعصون الأوامر ولذلك فهم إرهابيون).. ص ٤٦٧.

ويختتم إدوارد سعيد كتابه قائلاً:

● وإذا كان لمعرفة الاستشراق أي معنى، فإنه يكمن في كونه تذكيراً بالتدهور المغوى للمعرفة، أية معرفة، في أي زمان. وربما يصدق هذا على العصر

الحاضر أكثر مما يصدق على الماضي .. ص ٤٩٧ [الاستشراق : (إدوارد سعيد) ترجمة محمد عناني ، سطور].

ومن الأفكار المهمة ما أورده إدوارد سعيد في كتابه على لسان مورتيمر جريفز الذي قال :

- . . محاولة الحصول على المطبوعات ذات الشأن بجميع اللغات المهمة في الشرق الأدنى والمنشورة منذ عام ١٩٠٠م . وهذه محاولة يجب على الكونجرس [الأمريكي] في بلدنا الإقرار بها باعتبارها من تدابير أمننا القومي .. ص ٤٥٠ .

ويصدق نفس الأمر ، وبدرجة أخطر ، على أمننا نحن القومي ، فالحرب تبدأ في العقول والقلوب قبل أن تنشب في ساحات القتال ، وقد راكمت مؤسسات التبشير والاستشراق ، والتعليم والإعلام ، في ذاكرة العالم الغربي الجماعية صوراً نمطية عن العربي والمسلم ، تبرر الاستعمار القديم ، بكل صورته الدموية ، والاستعمار الجديد ، بكل صورته المالية والثقافية والقانونية ، وبما في ذلك صور الاستعمار القديم .

فما يقال للرأى العام العالمى ، والغربى ، وبصفة خاصة الأمريكى ، هو خطر حقيقى علينا ، فحكومات الغرب ، والولايات المتحدة بصفة خاصة ، لا تستطيع العدوان على شعب إلا بعد أن تقوم - بوسائل إعلامها من قنوات إذاعية وتلفزيونية ، إلى أفلام وكتب وجرائد ومجلات ، وهى خليط من المؤسسات الرأسمالية والإمبريالية والمحافظة - سياسياً ودينياً - والعلمانية - أضف لذلك الكنائس اليمينية فى حالة ما يكون ذلك العدو هو العرب والمسلمين - بشيطة ذلك العدو ، وتمثيله بهتلر أو موسوليني - وهما من نتاج حضارة أوروبا المسيحية والعلمانية والتنويرية - الذى يهدد الحضارة الغربية ، ويوشك على شن الحرب عليها .

ليست الرسومات المسيئة للنبي محمد (ﷺ) أمراً جديداً فى الإعلام الغربى ، وكذلك ليست بالأمر العفوى الخارج عن السياق والمنهج ، وماهى إلا استكمال لما بدأه قساوسة القرن الثامن الميلادى ، وأشعار دانتى ، وأعمال مؤسسة الاستشراق الأوروبية .

أما الدعاة النجوم فى الولايات المتحدة [دعاة شبكات التلفزيون والكنائس الهائلة «Mega Churches» ، والذين يتابع الواحد منهم عشرات الملايين] فقد أعلنوا على العالم :

● الإسلام شر، وشرير.

فرانكلين جراهام (الصغير)، الذي قام بالدعاء في حفل تنصيب
الرئيس جورج بوش.

● محمد لص، قاطع طريق، متعصب.

بات روبرتسون صاحب الإمبراطورية الإعلامية لليمين المسيحي.

● محمد، إرهابي.

جيري فالويل، زعيم الأغلبية الأخلاقية، والذي نصح نتيهاو عندما كان رئيساً
لوزراء إسرائيل قائلاً: لا تتخل عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية. وحذر
الرئيس بوش قبل انتخابات ٢٠٠٤م قائلاً: لو تخلت عن شبر واحد من أرض إسرائيل
التوراتية، فلن ينتخبك أحد من الإيفانجليكيين [٣٠ - ٤٠٪ من المسيحيين في الولايات
المتحدة]. وقد مات القس هذا العام.

ولكل من هؤلاء الدعاة موقعه على النت لمن أراد الاستزادة.

أما القس جيري فاينس، الرئيس السابق للمعمدانيين الجنوبيين [الذي يضم ١٦
مليون عضو] فقال في مؤتمرهم:

محمد تملكه جن، وهو محب للأطفال . . .

الله ليس يهوه [الله بالعبرية في الكتاب المقدس]. . . يهوه لا يحولك إلى إرهابي
لتقتل آلاف الناس.

وامتدح الرئيس بوش - في اليوم التالي مباشرة - المعمدانيين على تسامحهم الديني.

<http://www.washingtonpost.com.proxy1.lib.uwo.ca:2048.The.Washington.Post>

وقال جون أشكروفت، النائب العام السابق لجورج بوش: إلهنا أرسل لنا ابنه
ليموت في سبيلنا . . . أما إله المسلمين، فهو يطلب منهم أن يرسلوا أبناءهم ليموتوا في
سبيله (*).

(*) ويبدو أن السيد أشكروفت راسب في مادة التاريخ الأمريكي . . . فقد أرسلت الولايات المتحدة قواتها
لتحارب - معتدية خارج أراضيها - حوالي ٢٠٠ مرة منذ عام ١٩٤٥م، أي بواقع ٣-٤ مرات/ السنة -
جورج فيدال في كتابه: حرب مستمرة من أجل سلام مستمر . - ص ٢٢-٤١ . بل إنه حتى لم يقرأ =

ما سبق هو عن التيار الرئيسي والتقليدى فى عالم الغرب ، سواء العلمانى - وهو الغالب فى أوروبا - أو القائم على الثقافة والقيم اليهودمسيحية - وهو الغالب فى الولايات المتحدة .

ولكن هناك أصوات تخالف ذلك ، قليلة ولكنها يمكن أن تزيد ، تعمل على تغيير ذلك الفكر - ومن ثم ما يترتب عليه من عمل .

ففى الولايات المتحدة ، أنشأ ديلوماسيون سابقون فى الشرق الأوسط مؤسسة باسم : «If Americans know» تحاول تصحيح رؤية الشعب الأمريكى عن الشرق الأوسط ، وما يحدث فيه . وأصدر الرئيس الأسبق كارتر كتاباً هاماً يسبح به ضد التيار اسمه «Palestine, Peace Not Apartheid» ، كذلك أعد أستاذ العلوم السياسية فى جامعة هارفارد - التى يقود خريجوها العالم - وجامعة شيكاغو ، ستيفن . إم . وات ، وجون . جيه . ميرشايمر ، دراسة عن «اللوبي الإسرائيلى فى الولايات المتحدة» مفادها أن ضغوط ذلك اللوبى جعلت سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ليست فى مصلحتها ، ولكن فى مصلحة إسرائيل .

بل هناك الفتاة الأمريكية اليهودية راشيل كورى التى كانت فى مقتبل العمر ، وذهبت إلى غزة لتعرف ماذا يحدث ، فلم تتوان عن استنكار السياسة الإسرائيلية ، ووقفت وحدها بجسدها الصغير وروحها - التى استشرفت العدل الإلهى فتسامت - أمام بلدوزر إسرائيلى يهجم بهدم منزل فلسطينى^١ - حتى لحقت ببارئها .

لدينا الكثير الذى علينا عمله لتصحيح - أنفسنا أولاً - وثانياً تصحيح تلك الصور الأيديولوجية النمطية الخبيثة عن العرب والمسلمين ، وحتى ندافع عن أمننا القومى وذواتنا .

= ما قاله الأب المؤسس وثانى رؤساء الولايات المتحدة جون آدمز فى رسالة له بتاريخ ١٨١٦م :
الانحراف [الذى أصاب المسيحية واليهودية] جعل من الديانتين اليهودية والمسيحية أكثر الديانات دموية على الإطلاق - الدين والسياسة فى الولايات المتحدة . ج١ ، ص ٨٢ .
بالطبع لم يكن آدمز يعرف حجم الدماء التى أسالتها المسيحية واليهودية فى القرنين التاليين لرسالته .

ولكن حتى نبدأ العمل ، يجب أن نبدأ من تأثير التيار الرئيسي فى الإعلام الغربى ، ومن الإذعان الاختيارى لضغوط السياسة الغربية .

فنحن الضحية وليس المعتدى الآن ، ومن قبل وأن نعرف أن ثقافة الغرب - فى معظمها - تثن من التعصب والعنف والعدوان ورفض الآخر . . . وإذا لزم استتصاله ، كذلك يثن - معظم - تاريخه وحاضره .

وأولئك الغافلون (أو الغائمون) الذين سارعوا بتغيير مناهج المدارس وخاضوا فيما لا يعرفون من آيات الجهاد فى القرآن ، وما إلى ذلك ، لو فتحوا العهد القديم ، سفر العدد وسفر يشوع على سبيل المثال ، لوجدوا الأمر الإلهى بقتل كل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ، وحتى البهائم ، أمراً متكرراً عدة مرات . . . وبدون سبب ولا رادع ولا مانع . . . ولوجدوا فى سفر العدد ، الإصحاح ٣١ الآيتين ١٧ ، ١٨ أمر النبى موسى لقواده بأن :

اقتلوا كل ذكر من الأطفال .

واقتلوا أيضاً كل امرأة ضاجعت رجلاً* .

ويمكنهم أيضاً أن يقرءوا المهر الذى طلبه الملك شاول من النبى داود . . . مائة غلفة من غلف الفلسطينيين . . . فقتل النبى داود مائتين بدلاً من مائة - وقطع أعضاء ذكورتهم ، وأهداها للملك مهراً لابنته : . . . فقال شاول لهم : « هذا ما تقولونه لداود : إن الملك لا يطمع فى مهر ، بل فى مئة غلفة من غلف الفلسطينيين ، انتقاماً من أعداء الملك » . قال هذا ظناً منه أن يوقع داود فى أسر الفلسطينيين . فأبلغ عبيد شاول داود بمطلب الملك ، فراقه الأمر ، ولا سيما فكرة مصاهرة الملك . وقبل أن تنتهى المهلة المعطاة له ، انطلق مع رجاله وقتل مئتى رجل من الفلسطينيين ، وأتى بغلفهم وقدمها كاملة لتكون مهراً لمصاهرة الملك . فزوجه شاول عندئذ من ابنته ميكال - سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٨ : زواج داود من ميكال : الآيات ٢٥ - ٢٧ .

ولو تصفحنا العهد الجديد ، لوجدنا كل الأناجيل تدعو للسلام والمحبة واجتتاب الماديات الدنيوية ، ولكن للأسف الشديد ، بنى العالم المسيحى الغربى من سفر رؤيا

(*) ومن مثل هذا النص ، يقوم التبرير الأيديولوجى لقتل إسرائيل أسراها من الجنود المصريين والعرب .

يوحنا، وهو حلم ملئ بالرموز، أسطورة عن نهاية العالم وضرورة قيام حرب دموية في هرمجدون. رأى مفسروها من اليمين المسيحي في أمريكا أنها حرب نووية يموت فيها مئات الملايين. حتى يهبط المسيح ثانيًا ليعيش العالم المسيحي في سلام، على دماء تلك البشرية، في أحد التأويلات الغريبة.

ولم نسمع عن أحد في الشرق يحذر من ذلك أو يطالب بتغييره (*)!

لقد تنبته كارين أرمسترونج في أوائل التسعينيات لخطورة ما يروجه الإعلام الغربي على نبي الإسلام ومن ثم على المسلمين، ويبدو أنها خشت أن يكون ذلك تمهيداً لمغامرة عسكرية جديدة. . فوضعت كتابها الأول عن شخصية النبي محمد (ﷺ).

وبعد أحداث ٩/١١ المأساوية، رأت أنها في حاجة لعمل كتاب آخر، لما يبدو أنها خشته من شرور جديدة بين الغرب المسيحي واليهودي والعلماني، والإسلام. جاء كتابها الجديد «محمد نبي زماننا» ليذكر الجميع، في الشرق وفي الغرب، بأنهم في حاجة لتفكير جديد غير تقليدي، ليتعايشوا معاً، ورأت في شخصية نبي الإسلام نموذجاً يهدى العالم في زماننا للحلول المبتكرة التي يستلزمها الوصول للسلام.

وكما ساهمت أرمسترونج بما تستطيعه، وهو الكتابة، أليس لدينا نحن ما نستطيعه؟ بالطبع لن نبدأ العمل بدون إيمان بهويتنا وبقضيتنا. . .

ولن نستطيع ذلك ونحن نعيش في ظلمات الجهل المركب والنفاق والانتهازية، في صحرائنا الفكرية الجرداء، الخاوية والمستبدة، والتي تفكك إرادتنا وأوصالنا.

عادل المعلم

ديسمبر ٢٠٠٧م

(*) صدرت عشرات الكتب في الولايات المتحدة عن حرب نهاية الزمان «هرمجدون» بإجمالي توزيع يزيد على مائة مليون نسخة، وصدر منها طبعات للناشئين، وبالطبع أفلام سينمائية.

مقدمة

تاريخ التقاليد الدينية هو حوار مستمر بين الحقيقة السامية والأحداث الجارية في عالم الأرض . يدقق المخلصون في الماضي المقدس بحثاً عن الدروس التي تخاطب أحوالهم في حياتهم اليومية . لكل دين - في معظم الأديان - شخصية رئيسية تعبر عن مثاليات الإيمان في صورة بشرية .

يتأمل البوذيون في صفاء بوذا في حالة النيرفانا(*) الحقيقة العليا التي يتطلعون إليها، بينما يرى المسيحيون في المسيح الحضور المقدس كقوة للخير والحب في العالم . تسطع هذه الشخصيات النموذجية بالنور على الأحوال المظلمة في عالمنا الخطاء - التي يبحث معظمنا الخلاص منها - وتخبرنا ما يمكن للإنسان أن يكون عليه .

لقد فهم المسلمون ذلك دائماً، حيث كلفهم القرآن برسالة : هي بناء مجتمع عادل وكريم، يعامل كل فرد باحترام، لذلك كان الصلاح السياسي للمجتمع المسلم، وما زال، أمراً ذا أهمية عليا .

مثاليات أى دين، يصعب - بما يقترب من الاستحالة - تحقيقها، ولكن بعد كل إخفاق، حاول المسلمون النهوض والبداية من جديد . وتشهد الشعائر والفلسفات والمذاهب والنصوص الدينية والأضرحة العديدة، على النقد الذاتى المهموم والمتكرر في معالجة الأحداث السياسية فى المجتمع الإسلامى .

جسدت حياة النبى (ﷺ) (٥٣ ق . هـ إلى ١١ هـ / ٥٧٠ إلى ٦٣٢ م) المثالية الإسلامية قديماً وحديثاً، حيث تكشف سيرته ما غمض من تدبير الله لشئون العالم، وتصور التسليم الكامل لله، والذي يجب على كل إنسان السعى لتحقيقه . جاهد

(*) النيرفانا : السعادة القصوى التي تتخطى الألم، والتي تلتسها البودية فى قتل شهوات النفس .

المسلمون منذ البداية، خلال حياة النبي (ﷺ)، لفهم حياته وتطبيقها على حياتهم. بعد أكثر قليلاً من مائة سنة من وفاته، حين أخذ الإسلام في الانتشار في أقاليم جديدة واكتساب مسلمين جدد، بدأ علماء المسلمين في جمع أقوال وأفعال النبي محمد (ﷺ) وتقريراته، أي الحديث والسنة، التي تبين أساس الشريعة الإسلامية، وتعلم المسلمين طريقة حياة النبي (ﷺ): كيف يتكلم، ويأكل، ويحب، ويغتسل، ويتعبد، وكيف مارس أدق تفاصيل حياته على الأرض، على أمل أن يصلوا مثله إلى التسليم الكامل لله.

تقريباً في القرنين الثامن والتاسع ميلادياً، أي الثاني والثالث هجرياً، بدأت كتابة التاريخ الإسلامي على أيدي كل من: محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م)، محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ / ٧٤٧ - ٨٢٢م)، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م). لم يعتمد هؤلاء المؤرخون على ذكاراتهم وانطباعاتهم فقط، ولكنهم حاولوا بجدية هيكله بناء تاريخي، ورجعوا إلى وثائق وكتابات سابقة في رواياتهم، وأسندوا الروايات الشفوية إلى مصادرها الأصلية. وبرغم توقيهرهم لمحمد (ﷺ) كرجل الله، إلا أنهم لم يتجنبوا النقد والتمحيص في عملهم، ولحد كبير، كنتيجة لمجهوداتهم، أصبحنا نعرف عن محمد (ﷺ) أكثر مما نعرف عن مؤسس الديانات الرئيسية، وأصبحت هذا المصادر الأولى لا غنى عنها لأي كاتب لسيرة النبي (ﷺ)، وسيتم الرجوع إليها تكراراً في هذا الكتاب.

قد لا ترضى أعمال المؤرخين الأوائل مؤرخي اليوم، فقد كانوا رجال عصرهم، وغالباً ما تضمنت رواياتهم معجزات وأساطير يمكن تأويلها بطريقة مختلفة اليوم. ولكنهم كانوا مدركين لتعقيد موادهم، ولم يكونوا متحيزين لنظرية أو قراءة للأحداث على حساب أخرى. وكانوا أحياناً يضعون روايتين مختلفتين تماماً بجانب بعضهما البعض، ويضعون لكل منهما أسانيداً، حتى يمكن للقراء تكوين آرائهم الشخصية.

أحياناً لم يسلموا بصحة الروايات المتاحة لهم، وحاولوا رواية قصة نبيهم (ﷺ) بأعلى ما في وسعهم من أمانة وصحة.

كانت هناك فجوات في رواياتهم، فنحن لا نعرف شيئاً - تقريباً - عن حياة محمد (ﷺ) الأولى قبل أن يتلقى ما اعتقد أنه وحى من الله وهو في عمر الأربعين. نمت أساطير دينية عن ولادة محمد (ﷺ) وطفولته وشبابه، ولكن قيمتها الرمزية تتجاوز بوضوح قيمتها التاريخية.

وتتوافر أيضاً مادة تاريخية قليلة عن حياة محمد (ﷺ) السياسية الأولى في مكة، كان في تلك الفترة شخصية مغمورة نسبياً، ولم يجد أحد جدوى من ملاحظة نشاطاته. مصدرنا الرئيسي للمعلومات هو القرآن الذي قرأه على العرب.

لمدة ٢٣ عاماً تقريباً، منذ (١٣ ق. هـ / ٦١٠ م) إلى وفاته في (١١ هـ / ٦٣٢ م)، رأى محمد (ﷺ) أنه تلقى رسالات مباشرة من الله، جُمعت في القرآن. لم يشمل القرآن - بالطبع - رواية عن حياة محمد (ﷺ)، ونزل عليه تدريجياً سطوراً بسطر، آية بآية، سورة بسورة. كان الوحي أحياناً يتعامل مع حادثة معينة في مكة أو المدينة.

أجاب الله في القرآن على نقاد محمد (ﷺ)، حيث عرض وجهات نظرهم، وشرح بالتفصيل أهمية معركة أو صراع داخل المجتمع. كلما نزلت مجموعة من الآيات إلى محمد (ﷺ)، حفظها المسلمون عن ظهر قلب، وكتبها المتعلمون. وانتهى أول جمع رسمي للقرآن عام (٣٠ هـ / ٦٥٠ م) تقريباً، بعد وفاة الرسول بحوالي عشرين عاماً، وحصل على وضع قانوني معترف به بين المسلمين (*).

القرآن هو كلمة الله المقدسة، ومرجعيتها بقيت مطلقة، ولكن يعرف المسلمون أنه ليس من السهل دائماً تفسيره، فقد جاءت أحكامه في زمن مجتمع صغير، ولكن بعد قرن من وفاة النبي (ﷺ) حكم المسلمون إمبراطورية واسعة، امتدت من جبال الهيمالايا إلى جبال الپيرنيه [سلسلة جبال جنوب غرب أوروبا في إسبانيا وفرنسا]. أصبحت ظروف حياتهم مختلفة تماماً عن حياة النبي (ﷺ) والمسلمين الأوائل، لذا كان على فهم الإسلام أن يتجدد ويتوائم. كتبت أولى المقالات في التاريخ الإسلامي لمخاطبة الارتباك الناشئة. كيف يمكن للمسلمين تطبيق رؤية النبي (ﷺ) وممارساته في أزمنتهم المتتالية؟

(*) تم أول جمع مكتوب للقرآن في خلافة أبي بكر، بعد وفاة النبي ﷺ بأقل من سنتين، وذكر الكاتبة أن ذلك الجمع حصل على وضع قانوني بين المسلمين، يأتي من خلفية دراستها لسألة أى أسفار الكتاب المقدس اعتبرها اليهود والمسيحيون قانونية، وأى أسفار استبعدوها، أو اختلفوا عليها.

حاول كتاب السيرة الأوائل عند روايتهم قصة حياته ، أن يفسروا بعض آيات أو فقرات القرآن بتناول السياق التاريخي لنزول الوحي بها . بمعرفة أسباب نزول تعليم قرآنى معين ، يمكن للفقهاء قياس ماذا عليهم أن يفعلوا فى أزمتهن المتعاقبة . اعتقد هؤلاء الكتاب والمفكرون أن معرفة كفاح النبى (ﷺ) لجعل كلمة الله مسموعة فى القرن الأول هجريًا / السابع ميلاديًا ، تساعدهم على احتفاظهم بهذه الروح نفسها فى كفاحهم الشخصى ، فى أى زمان ومكان .

منذ البداية ، لم تكن الكتابة عن النبى محمد (ﷺ) مجرد حرفة تاريخية أو أثرية ، واستمرت كذلك حتى اليوم . بنى بعض الأصوليين المسلمين أفكارهم القتالية على حياة محمد (ﷺ) ، حيث اعتقد بعض المتطرفين المسلمين أنه سوف يغفر ويعجب بفظائعهم ، ويشعر المسلمون الآخرون بالرعب من ادعاءاتهم هذه ، ويشيرون إلى التعددية الواسعة فى القرآن والتي تدين العنف ، وترى أن كل الأديان الراشدة نبتت من إله واحد .

ولدينا فى الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام (إسلاموفوبيا) يرجع لأيام الصليبيين . فقد صمم رهبان مسيحيون من أوروبا فى القرن الثانى عشر على أن الإسلام دين عنف انتشر بالسيف ، وأن محمدًا (ﷺ) كان دجالاً فرض دينه على العالم الرافض بقوة السلاح ، وكانوا يسمونه فاسقًا ومنحرفًا جنسيًا . أصبحت هذه القصة المشوهة عن حياة النبى (ﷺ) واحدة من الصور النمطية المقبولة فى الغرب ، وكان من الصعب على الغربيين رؤية محمد (ﷺ) فى ضوء أكثر موضوعية . ومنذ تدمير مبنى مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، استمر أعضاء من اليمين المسيحية فى الولايات المتحدة وبعض قطاعات وسائل الإعلام الغربية ، فى هذا العداء التقليدى ، مدعين أنه مدمن للحرب بطريقة لا يمكن شفاؤها ، وبعضهم تمادى وادعى أنه كان إرهابيًا ومحبًا للأطفال جنسيًا .

لا يمكننا أن نتحمل إطلاق العنان لهذا النوع من التعصب الأعمى ؛ لأننا بذلك نقدم هدية للمتعصبين الذين يستخدمون هذه الأقاويل لإثبات أن الغرب فى حرب صليبية جديدة ضد العالم الإسلامى . لم يكن محمد (ﷺ) قط رجل عنف ، لا بد أن نقرب من حياته بطريقة متوازنة حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعبرة . إن تكريس هذا

الإجحاف غير الدقيق يدمر التسامح والتحرر والعاطفة التي يفترض أنها تشخص الحضارة الغربية.

لقد اقتنعت بهذا منذ خمس عشرة سنة ماضية بعد فتوى آية الله الخميني بقتل سلمان رشدي وناشره، بسبب ما رأى أنه تجديد على محمد (ﷺ) في كتابه: آيات شيطانية. لقد اشماززت من هذه الفتوى، واعتقدت أنه من حق رشدي أن ينشر ما يختاره، ولكنني كنت منزعة من طريقة محاولة بعض مساندي حرية رشدي تحويل القضية من شجب الفتوى إلى إدانة للإسلام نفسه، لا تقوم على حقائق. يبدو أنه من الخطأ الدفاع عن مبدأ ليبرالي بإحياء تعصب القرون الوسطى، وبدا أننا لم نتعلم شيئاً من مأساة ثلاثينيات القرن العشرين عندما مكن هذا النوع من التعصب هتلر أن يقتل ٦ ملايين يهودي، ولكنني أدركت أن كثيراً من الغربيين لم تكن عندهم فرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد (ﷺ)، لذلك قررت أن أكتب رواية شعبية مبسطة عن حياته، لتحدي وجهة النظر [الغربية] الراسخة عنه. كانت النتيجة هي كتاب «محمد (ﷺ)»: سيرة النبي»، الذي تم نشره للمرة الأولى في ١٩٩١م. ولكن على أثر ١١ سبتمبر، فإننا نحتاج للتركيز على جوانب أخرى من حياة محمد (ﷺ)، لذلك فإن هذا كتاب جديد تماماً ومختلف كلية، أرجو أن يتحدث مباشرة عن الحقائق المرعبة لعالم ما بعد ١١ سبتمبر.

في شخصية محمد (ﷺ) النموذجية، دروس مهمة، ليس فقط للمسلمين، ولكن أيضاً للغربيين، حيث كانت حياته كلها جهاداً كما سوف نرى، وهذه الكلمة لا تعني الحرب المقدسة، ولكنها تعني كفاحاً. كدح محمد (ﷺ) - بكل معاني الكلمة - ليجلب السلام على العرب الذين مزقتهم الحروب، ونحن نحتاج لمن هم مستعدون لعمل ذلك اليوم. كانت حياته حملة لا تكل ضد الطمع والظلم والتكبر. لقد أدرك أن العرب في مفترق طرق وأن طريقة التفكير السابقة لم تعد تنفع، لذلك بذل نفسه في جهاد مبتكر لينشئ حلاً جديداً تماماً. لقد دخلنا تقوياً تاريخياً جديداً في ١١ سبتمبر، ولا بد أن نكافح بمستوى مماثل لتطوير وجهة نظر مختلفة.

من الغرابة أن الأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع،
بها الكثير الذي نتعلم منه كيف نواجه الأحداث التي تجرى في وقتنا هذا،
وأهميتها التأسيسية، أكثر كثيراً من التعليقات الصوتية للسياسيين .

لم يحاول محمد (ﷺ) أن يفرض معتقداً دينياً تقليدياً. إنه لم يكن مسرفاً في
الاهتمام بما وراء الطبيعة [الميتافيزيقا]. ولكن اهتمامه الأكبر كان تغيير قلوب وعقول
الناس . كان يطلق على الروح السائدة في ذلك الوقت الجاهلية . عادة ما فهم المسلمون
مقصوده بأنه «زمن الجهل» وهي فترة ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، ولكن
كما أظهرت أبحاث حديثة، محمد (ﷺ) لم يستخدم لفظ الجاهلية ليشير إلى زمن
تاريخي، وإنما إلى حالة من العقل التي تسبب العنف والإرهاب، في القرن السابع في
الجزيرة العربية . إنني أحاجج أن هناك دليلاً كبيراً على أن الجاهلية تعيش في الغرب
اليوم، كما تعيش في العالم الإسلامي .

من المفارقات أن أصبح محمد (ﷺ) شخصية مجاوزة للزمان؛ لأنه كان مرتبطاً
جذرياً بزمنه . لا يمكننا فهم إنجازاته إذا لم نقدر ما كان يعمل ضده . وحتى يمكننا فهم
ما يمكن أن يقدمه لمآزقنا، لا بد أن ندخل العالم المأساوي الذي جعله نبياً منذ أكثر من
ألف وأربعمائة سنة، وهو على قمة جبل خارج المدينة المقدسة مكة .
